المقتطف

الجزء الثالث من المجلد السابع والستين

١ اغسطس (آب) سنة ١٩٢٥ — الموافق ١١ محرم سنة ١٣٤٤

سليمان البستاني

اذا ظهر في اسرة نابغة في علم او فن او مطلب فالغالب ان يكثر فيها الذين يتفنون اثره فيه كأن النبوغ يتناولهم بالارث او بالعدوى. ولذلك نرى أسرا امتاز كثيرون من آحادها بالعلوم الرياضية او الفنون الحربية او المناصب السياسية او الشعر او النقش او التصوير. ومن هذا القبيل بيت البستاني وهو اسرة من اسر لبنان فقد نشأ بنها في عهدنا المعلم بطرس البستاني صاحب محيط المحيط ودائرة المعارف والجنان والجنة وابناءه سليم ونجيب اللذان شاركاه في انشاء الدائرة والجنان والجنة، والاستاذ اللغوي المشهور عبدالله البستاني وصاحب الترجمة الوزير العلامة سليمان البستاني.

لقيناه اولاً في مدينة بيروت وكان شاباً في نحو السادسة عشرة او السابعة عشرة والنظارة على عينيه كأن الدرس الكثير اضعف بصره فاستعان بها. ثم مضت السنون ونحن لا نعلم من امره الا انه كان مساعداً للبستاني الكبير في تأليف دائرة المعارف جمعاً وترجمة وقد استنبط طريقة لاختزال الكتابة العربية نشرت في المجلد التاسع من الدائرة تحت اسم ستينوغرافيا وانه ذهب الى البصرة مع احد ابناء البستاني تاجراً وجال في بلاد العرب ودرس اخلاق البدو في مواطنهم الى ان كانت سنة ١٨٨٧ فهبط مصر في اواخرها وجاء ادارة المقتطف وبيده مقالة قال فيها انه رأى بين قبائل البدو قبيلة تدل ملامحها وعاداتها وتقاليدها على انها من بقايا الصليبيين ويؤيد ذلك اسمها فانه « الصلبة ». فنشرناها في ثلاثة اجزاء متوالية من المجلد الثاني عشر من المقتطف. وفي كل صفحة منها ادلة على انه بحث في احوال البدو بحث العلماء المحققين. قال في الصفحة ١٤٣ من المقتطف ما نصه « اننا لو خرجنا من دمشق الشام الى عرب عنزة والرولة

وضربنا في البادية حتى اتصلنا الى شمر الجبل والعطفنا يميناً الى العجمان وتوغلنا في البر حتى بلغنا الصفير ومطير وسرنا من الرقتين شمالاً الى ان ادركنا المتفق على الفرات وعبرنا دجلة الى بين كنانة وربيعة والعطفنا شرقاً وجنوباً الى بني اسد وبني لام حتى اتصلنا الى كعب في بلاد العجم لما رأينا اختلافاً في اخلاقهم فوق ما نرى بين اهالي بيروت واحدى قرى لبنان. وكأنَّ في البداوة سرًّا ليس في الحضارة فان الطبيعة قد قضت على الحضر بالتقلب والتخلق وعلى البدو بالثبات على حالة واحدة »

وقال قُبيل ذلك معارضاً قول شاعر العرب الذي قال

انَّا وانا كرُمت اوائلنا لسنا على الاحساب نتكلُ
نبني كما كانت اوائلنا تبني ونفعل مثلما فعلوا

بقول راكان شيخ العجمان من شعراء البدو في الزمن الحالي الذي قال

يفتخرْ حاشاك بالعظم الرميمْ فخر البزون بالسبع الششومْ

وكان كأنهُ آلة مملوَّة بخاراً منضغطاً يطلب منفذاً فقال لنا وهو يقرأ مسودة هذه المقالة ونحن نبحث معهُ في الشعر العربي ارشدوني الى عمل اعملهُ عمل لا اطلب عليهِ اجراً وانما يكون اثراً في اللغة بعدي. فقلنا لهُ نرى ان تعمل ما لم يعملهُ الاوائل من ابناء هذه اللغة. فقال وما هو قلنا ان تترجم هوميروس ففكر قليلاً ثم قال سافعل. وجعل يبحث ويحقق وبعد ايام ارانا مثالاً من الترجمة فابدينا لهُ رأينا فيها. ثم غادر القاهرة وانقطعت اخبارهُ عنا. وقد قال في مقدمة الالياذة ما نصهُ « ولم أكد استقر في مصر حتى حدا بي حادي الاسفار التي الفتها منذ الصبا فبرحت القاهرة سنة ١٨٨٨ وفي النفس شغف بها وحنين اليها فانتهى بي التطواف الى العراق بعد ان طرقت الهند واطراف العجم فاقمت فيها زهاء سنتين اضطررت الى طي الالياذة في معظمها ولم يتسنَّ لي العود اليها الاَّ بضعة اسابيع .. ثم شخصت الى الاستانة واتخذتها مقاماً طيباً لبثت فيهِ سبع سنوات كنتُ كثير التنقل في انحائها بين الشرق والغرب فيوم بدوريا ويوم باوربا واميركا والمرجع الى الاستانة وكانت الالياذة رفيقي حيثما توجهت اختلس الاوقات خلسة فلا تفرغ اليد من عمل الاَّ عدتُ اليها »

وكنا واثقين انهُ متابع عملهُ لشدة ما رأيناهُ من اهتمامهِ بهِ. وافتتحنا مقتطف دسمبر سنة ١٨٩١ بمقالة في الشعر والشعراء ذكرنا فيها الشعر الاوربي والشعر العربي الحديث وختمناها بقولنا ان بعض الناطقين من شعراء عصرنا استشارنا في طريقة لنقل

الشعر العربي من ربقة القيود التي تقيد بها فاشرنا عليه بترجمة اشعار هوميروس

وسنة ١٨٩٦ عاد الى القاهرة فاخبرنا انهُ انجز نظم الالياذة وشرع في شرحها واتمّ في اوائل سنة ١٨٩٧ بمثال من نظمهِ في وصف ترمس اخيل فنشرناهُ في مقتطف مارس تلك السنة وذكرنا الفقرة المشار اليها آنفاً وقلنا بعدها « انا نبشر ابناء العربية واراغبين في الشعر العربي ونزع التقليد منهُ واعادة الابتكار اليهِ ان الصديق الفاضل والشاعر المطبوع سليمان افندي البستاني الذي اقترحنا عليهِ ان يترجم هوميروس قد قام بهذا العمل الجليل على ما يرام بعد ان اشتغل بهِ اربعة اعوام فانزع نحو احد عشر الف بيت من اشعار هوميروس في قالب عربي نظمها نظم الدر وسبكها سبك النضار » الخ ثم قلنا بعد ذكر الاشعار ما نصهُ

« وقد عثنا من ناظم هذه الابيات انهُ علق عليها شرحاً مسهباً بعد ان درس اللغة اليونانية الاصلية وطالع كل الشروح التي وضعها علماء الافرنج على اشعار هوميروس وقرأ مئات من الدواوين العربية والافرنجية لبري المعاني التي ذكرها هوميروس ووردت في اشعار غيرهِ من الشعراء . وسيطبع هذا الديوان الكبير مع ما علّقهُ عليهِ من الشروح وصنع لهُ من الصور الكثيرة ويتحف بهِ اللغة العربية وابناءها فتزول عنا وصمة عار لحقتنا منذ الف عام وهي ان العرب مع اعتنائهم بفلسفة اليونان وعلومهم واهتمامهم بالشعر والشعراء لم يقدموا على ترجمة اشعار هوميروس اما لانهم لم يفهموا معانيها او لانهم لم يقدروها قدرها »

لكنهُ لم يقف عند ذلك الحد بل واصل البحث والتحقيق والشرح والمعارضة باشعار العرب الى ان باشر الطبع سنة ١٩٠٣ وانتهى من طبع الالياذة وحواشيها وفهارسها والمقدمة القيمة التي قدمها لها سنة ١٩٠٤ .

وظهرت الالياذة حينئذٍ في حلة قشيبة ووصفناها في مقتطف يوليو تلك السنة واحتفل ادباء مصر بهِ حينئذٍ واختارت لجنة الاحتفال كاتب هذه السطور لينوب عنها في شكر المدعوين الى الاحتفال ووصف العمل الباعث عليهِ فقال كلمةً في هذا الموضوع وقد نشرتهُ في مقتطف يوليو سنة ١٩٠٤ مع اقوال بعض الفضلاء ومع خطبة بليغة القاها المحتفل بهِ . اما كلمتنا فتناولت ما نعتقدهُ في ترجمة الالياذة وشرحها وتناولت مقدمتها ايضاً وقد وصفنا هذه المقدمة بقولنا

« والبستاني حليف الطبع وما اشرف الطبع الجاري وما امجدهُ وما انفعهُ فانهُ اكثر الاعمال العظيمة نشأت منهُ . فلم يشأ ان يرسل الالياذة بشرحها بتراء من غير مقدمة وهي مقدمة

عرّف احد علماء الانكليز المقدمة بانها الجزء الذي لا يقرأ من الكتاب ولكن صديقنا البستاني وضع للالياذة مقدمة تملأ مئتي صفحة لا يملّ القارئ من مطالعتها لما يجدهُ فيها من الفوائد وحسن التنسيق . وهي لا تقلّ عن مقدمة ابن خلدون في تعدد مواضيعها وبلاغة عبارتها وكثرة فوائدها . ونسبتها الى مقدمة ابن خلدون من حيث دقة البحث نسبة العلم في هذا العصر اليهِ في عصر ابن خلدون . وهي مثلها ايضاً في متانة العبارة حتى يصح ان تكون انموذجاً للانشاء البليغ . وقد شغلت مئتي صفحة . وخالف الكاتب فيها اساليب المقدمات فقسمها الى فصول عديدة حتى يرغب المطالع في مطالعتها ولا يملها كما يملّ قراءة المقدمات التي لا فصل فيها

«هذه المقدمة ديوان ادب وعلم افرغ فيها المؤلف نتيجة درسهِ وبحثهِ السنين الطوال وفي احتفالنا بنشر هذا الكتاب نحتفل بنشر ثلاثة كتب كبيرة الديوان المنتظم والشرح المنسجم والمقدمة الشاملة ثلاثة كتب في كتاب واحد يملأ نحو ١١٥٠ صفحة يضاف اليها اكثر من مئة صفحة فهارس ومعاجم استغرقت تعباً كثيراً لكن المؤلف فضّل ان يتعب مرةً ولا يتعب كل قارىء من قرّاء كتابهِ مراراً فلهُ الشكر الجزيل على كل حال »

قلنا ان البستاني حليف الطموح وهذا الطموح الشريف فقد رأى كما رأى كل اديب قبلهُ ان بضاعة القلم كاسدة فلما كثر الاخذ والعطاء سنة ١٩٠٦ و١٩٠٧ وانرى كثيرون وهم غير اهل للثراء التي دلوهُ في دلاء المتجرين وفاتهُ ان طالب علم وطالب مال لا يجتمعان فكانت النتيجة ان خسر كثيراً . فالتفت الى ناحية اخرى لانهُ كان يعلم من نفسهِ انهُ في مقدمة ابناء جيلهِ عقلاً وعلماً فلم يكد الدستور العثماني يصدر في تركيا حتى ودّع الهة الشعر والهة التجارة وحوّل وجههُ نحو السياسة فرشّح بهِ منتخبو بيروت واختاروهُ نائباً عنهم فذهب الى الاستانة واستمرّ في جهادهِ الى ان رأى ان عملهُ يكون انجع في مجلس الاعيان فنُقل اليهِ . ثم جعل وزيراً للتجارة والزراعة والغابات والمعادن واعمالهُ في الوزارة العثمانية كثيرة ولا بد من ان يقوم بنشرها احد مريديهِ او انسبائهِ من آل البستاني لانهُ يظهر لنا مما نعرفهُ من اخلاقهِ ومما سمعناهُ منهُ قبيل وفاتهِ انها عظيمة جليلة تعود بالفخر على السوريين عموماً . ومما علمناهُ منهُ انهُ كان يودّ ان لا تدخل تركيا الحرب مطلقاً . وكان على اتصال مستمر بالسفير مرغنتو سفير اميركا في تركيا وبمساعدتهِ نجى كثيرين من النكبات. وقد روى لنا اموراً كثيرة من هذا القبيل لم تعها الذاكرة لانهُ كان يضع يدهُ على اوراقهِ ويعدنا بنشرها . والظاهر انهُ ذهب الى اميركا بدعوة من صديقهِ السفير مرغنتو لامور

ذات شأن كبير وانا لنأسف جداً الاسف لانهُ لم يطبع مذكراته قبل وفاته بعد ما فهمنا منهُ انهُ كشف فيها القناع عن امور كثيرة يفيد كشفها القائمين بامور تركيا الآن

فني ذمة الله يا خير الرفاق ويا ابلغ من يفاخر بهِ ابناء جيلهِ لقد سبقتنا الى الابدية مذكوراً بآثارك مبكيًا من اصدقائك وانت اسبق الى كل مكرمة فالى اللقاء

***

بعد كتابة ما تقدم وتسليمهِ للطبع وقفنا على التفصيل التالي فنشرناهُ اتماماً للفائدة ولانهُ يشرح مآثرهُ السياسية

فيما كان الفقيد يهتم بانجاز اعمالهِ الادبية الاخرى في مصر حدث الانقلاب العثماني والتحتهُ ولاية بيروت بما يقارب من اجماع المنتخبين على اختلاف الطوائف نائباً عن الولاية في مجلس المبعوثان فانتخب رئيساً ثانياً للمجلس المشار اليهِ وكان احمد رضا بك الشهير رئيسهُ الاول . وارسل البرلمان العثماني بعثة لزيارة اوربا فكان الفقيد لسان حال البعثة يخطب في كل احتفال يُعقد بلسان البلاد التي يزورها الوفد . وكلفهُ السلطان محمد الخامس مهمة خصوصية لدى الملك ادورد ملك الانكليز فألمّها لجلالتهِ بلغة انكليزية فصحى فقال لهُ جلالتهُ لا ريب انك درست لغتنا في بلادنا فاجاب لا بل في بلادي فقال جلالتهُ بالطبع يجب ان يكون ذلك في مدرسة احدى الارسالیات الانكليزية او الاميركية قال لا بل في المدرسة الوطنية البستانية . فقال جلالتهُ اني مسرور جداً من اختيار جلالة السلطان لك لما كلفت بهِ . واكرم وفادتهُ

ثم بعد رجوع البعثة وبعد انتهاء الحرب البلقانية سعت مملكة البلغار للاتفاق مع الدولة العثمانية وارسلت وفداً الى الاستانة لتتوصل الى ذلك فاقام الوفد فيها مدة طويلة لم يتوصل الى نتيجة وما كان يتأهب للرحيل تولى الفقيد امر مفاوضتهِ ولم يمضِ على ذلك الا بضعة اسابيع حتى عقد اتفاق بين الدولتين . وقد عثرنا على شهادة مكتوبة على صورة رئيس معتمدي البلغار الموسيو دي ناتشفتز التي اهداها الى الفقيد بخطهِ وهي :

A Son Excellence

Suleiman El Bustani, Ministre des Commerce et de l'Agriculture, comme témoignage de ma reconnissance pour ses efforts et son succès à amener un rapprochement entre l'Empire Ottoman et le Royaume de Bulgarie. signé Délégué Bulgare-

C. Du Natchovits

وترجمتها : الى صاحب الدولة سليمان البستاني وزير التجارة والزراعة اعرابًا عن اعتراف بجميلكم لجهادكم ونجاحكم في احداث تقارب بين الامبراطورية العثمانية ومملكة بلغاريا

(الامضاء) ج دي ، فاتشفتز المعتمد البلغاري

ثم كان في مجلس المبعوثان وليًا لخمس لجان واهمها لجنة الخارجية ولجنة السلام العام الدولية وأسس الغرفة البرلمانية الدولية التي اتصلت بجميع برلمانات العالم

ثم نقل الى مجلس الاعيان وعينتهُ الدولة سفيرًا فوق العادة لدى دول اوربا العظمى فكان يجوب العواصم ويحل المشاكل العويصة ويقابل اينما حل بالاكرام والاجلال واخيرًا عين وزيرًا للتجارة والزراعة والغابات والمعادن في وزارة المرحوم الامير سعيد حليم باشا فاستمر فيها سنتين وبينما كان في اثنائها يدًا عاملة فعالة في الاصلاح ولم يقبل الوزارة الاَّ بعد ما اشترط ان يكون مطلق التصرف في وزارته بعيدًا عن تدخل جمعية الاتحاد والترقي فانتفعت وزارتهُ من هذا الشرط لانهُ قلبها رأسًا على عقب وادخل فيها رجالاً اكفاء نذكر منهم وكيلهُ ساسون افندي وزير مالية العراق الحالي والكوماندان (والآن الجنرال) سرتو الفرنساوي سفير فرنسا الحالي في انقره فانهُ جعلهُ مديرًا لمدرسة الغابات التي كان قد انشأها ونظم البنك الزراعي وكان اول من افتكر بتأسيس النقابات الزراعية والصناعية في تركيا فطلب من الوزارة تعضيدهُ في ذلك فانتدبت شقيقهُ الدكتور سليم البستاني المحامي بمصر للسفر الى اوربا ودرس حالة النقابات الزراعية وتقديم تقرير عنها ومشروعًا بتأسيسها فقام بمهمتهِ على نفقتهِ وقدم تقريرهُ الاَّ ان اضطراب الحالة الدولية لم تمكن الفقيد من تنفيذ كثير من مشروعات الاصلاح . واستمر دائبًا في خدمة دولتهِ الى ان اقبلت الحرب العظمى فعارض في دخول الدولة العثمانية فيها معارضة شديدة وطلب البقاء على الحياد لينفذ مشروعاتهِ بالمثابرة والسعي وراء الاصلاح الداخلي الذي كانت البلاد مفتقرة اليهِ وعلى امل ان في الوقت الذي تكون دول العالم تتطاحن وتضعف تنقطع الدولة الى تقوية نفسها بالاصلاح الداخلي المادي والادبي فتخرج تلك من الحرب منهوكة القوى وهذه قوية صحيحة فتتبوأ محلاً مهمًا بين الدول . وبعد ان توصل الى اقناع اكثر اعضاء الوزارة بصحة نظريتهِ وضمهم اليهِ ومنهم المرحوم الامير سعيد حليم الصدر الاعظم تمكن انور باشا وطلعت باشا بالضغط ومعاونة المانيا على ترجيح كفة الدخول في الحرب فدب اليأس في نفس الفقيد وايقن ان الدولة باحثة بذلك عن حتفها بظلفها . فاستعفى من الوزارة وغادر الاستانة الى اوربا واستقال بعدهُ محمود باشا چوركصولي وزير الثقافة واوسقان افندي وزير البوستة والتلغراف

فمكث الفقيد في سويسرا مدة الحرب حيث اورثته رطوبة هوائها مرضاً عضالاً، غير ان مرضه لم يكن يقعده عن خدمة دولته بل كان اشتداد المحن عليها واجتهد ان يقيها الكارثة وكان نجح نجاحاً باهراً في هذا الصدد مرتين مدة قيام الحرب فانهُ بعد الهدنة مع مندوبي الحلفاء توصل الى ان تنسحب حكومة الاستانة من الحرب وتعلن حيادها مقابل تعهد الحلفاء لها بأمور هامة وهي اولاً الغاء الامتيازات الغاء تاماً ثانياً صيانة ممتلكات الدولة بحدودها ثالثاً حل مسألة الجزر بما يوافق الدولة العثمانية رابعاً امداد الدولة بكل ما يلزم لها من المال لاصلاح شؤونها. غير ان الضغط الحاصل من الخارج على حكومة الاستانة واستبداد انور باشا وطلعت باشا حالا دون قبول ذلك. ورغماً عن هذا الاخفاق وقبل انتهاء الحرب بستة شهور بعد ما بدا انتصار الحلفاء يظهر للعيان توصل الى اقناع مندوبي الحلفاء بقبول الاتفاق مع المحافظة على معظم هذه الشروط وبلّغ ذلك للاستانة فلم يقبل طلبهُ ايضاً. فحزن كثيراً حينما تمثل نتيجة جهوده مساعيهِ هذه وعاقبتها الوخيمة على الدولة فاشتد عليهِ المرض في مستشفى مون ريان حيث كان مقيماً ولما وضعت الحرب اوزارها استقدم اخاهُ سليماً حتى ارجعهُ الى مصر وهو على آخر رمق وعالجهُ فيها شقيقهُ الدكتور عبد الله ستة ونصف ستة فتمكن من شفائهِ. ولما عملت بشفائهِ حكومة الاستانة طلبتهُ بالحاح فسافر اليها واقام فيها سنة وشهوراً ولما لم تعد صحتهُ تمكنهُ من المثابرة في جهاده ورجع الى مصر وعملت عملية في احدى عينيهِ فلم تنجح واوشك ان يفقد النظر من العين الثانية وكان قد اخترع مدة مرضهِ اختراعين احدهما مختص بتقوية القوة الدافعة والآخر لقلب ورق الكتب فسافر الى الولايات المتحدة على امل التوصل الى انجاز اختراعهِ الاول الهام والانتفاع من اختراعهِ الثاني وعلى امل ان تغيير الهواء يكون مفيداً لنظرهِ فاستقبلهُ اصدقاؤهُ الاميركيون ومنهم المستر مورغانثو الذي كان سفيراً للولايات المتحدة في الاستانة مدة الحرب والجالية السورية واللبنانية ايما استقبال ولما كان يفكر في الرجوع الى مصر التي خدمها بعلمهِ وأحبها كثيراً عاجلتهُ منيتهُ

وكان الفقيد يعرف من اللغات معرفة تامة العربية والتركية والفارسية ولهُ في هذه اللغات ثلاث مؤلفات واشعار. والانكليزية والفرنسية وكان يخطب ويكتب في هاتين اللغتين بالسهولة التي كانت لهُ في اللغة العربية وكان يلمُّ ايضاً باللغة الطليانية واليونانية الحديثة واليونانية القديمة والالمانية والسريانية والعبرية